الـــــــزواج

الزواج غير المخادنة([1]) Concubinage ،هو اقتران دائم أو بنيّة الدوام – في الغالب- بين رجل وامرأة .

يعرفه ويستر مارك فيقول '' تستخدم كلمة الزواج للدلالة على مؤسسة اجتماعية ، ويمكن أن يعرف على أنه علاقة واحد أو عدد من الرجال مع واحدة أو عدد من النساء تعترف بها التقاليد والشرائع وتفترض عددا من الحقوق والواجبات لأطراف العلاقة من جهة ،وللأبناء الذين تنجبهم من جهة أخرى، تختلف تلك الحقوق والواجبات باختلاف الشعوب ، ولا يمكنها بالتالي أن تكون منصوبة على تعريف واحد ،لكن يجدر بالطبع أن يفترض الزواج دائما وجود علاقة جنسية ويعتبر المجتمع تلك العلاقة مباحة بين الزوج والزوجة ويرى أن من واجب كل من الشريكين إرضاء رغبات الشريك ضمن إطار معين '' ([2])، أما المخادنة فهي علاقة عارضة تهدف إلى الإشباع الجنسي ولا تفرض أي التزامات على أي من الطرفين ، فالزواج مفهوم اجتماعي- أنثروبولوجي أما المخادنة فهي مفهوم بيولوجي.

أما التعريف الأكثر شمولا فهو اقتران رجل أو أكثر بامرأة أو أكثر وهو رابطة معترف بها اجتماعيا يحقق قيامها إضفاء صفتي الزوج والزوجة عليهما،وتكوين عائلة بعد أن ينجبا أطفالا ، والاعتراف بذريتهما نسلا شرعيا لكل واحد منهما وقيام علاقة تنظمها قوانين وتقاليد اجتماعية([3]).

والزواج نظام اجتماعي معقد يتنوع بتنوع الثقافات فقد يكون أحاديا أو متعددا وقد يكون داخليا أو خارجيا وقد يكون مؤقتا ([4])،ويدفع في الزواج صداق وتجرى طقوس لإضفاء صفة القبول الاجتماعي والشرعية عليه، ويحق للزوج والزوجة أو لكليهما إنهاء الزواج بالطلاق Divorce ([5]).

يرجح إدوارد ويستر مارك أن الزواج قديم جدا وجد لدى الإنسان البدائي ، في شكل شبيه بما هو موجود لدى الإنسان في الحضارات العليا؛ يقول: ''وإني أعتقد بأنه حتى في الأزمنة البدائية، كانت هناك عادة أن يعيش رجل وامرأة (أو عدد من النساء) معا وأن يقيما علاقات جنسية ويربيا أبناءهما سويا، بشكل يؤمّن فيه الرجل حماية ومعيشة عائلته ، وتقوم المرأة بإطعام العائلة وأعمال المنزل ولقد تكرست تلك العادة بالعرف ثم بالشرائع، وتحولت فيما بعد إلى مؤسسة اجتماعية''([6])

---

[1] - وجدنا لهذا المصطلح مقابلات كثيرة لم نطمئن إليها ،مثلا المسارة ، والمخالة ،معاشرة غير شرعية إما لدلالتها العامة أو لكونها وصف لغوي للحالة مثل معاشرة غير شرعية واخترنا هذا المصطلح لبعده التراثي فقد كانت العرب في الجاهلية تفصل بين المسافحة أي التي تؤاجر نفسها مع أي رجل أرادها ، وذات الخدن فهي التي تتخذ خدنا معينا وما كانوا يحكمون على ذات الخدن بكونها زانية ، والخدن الصاحب على الفاحشة ، والأخدان أصدقاء على الفاحشة ثم جاءت الآية في سورة النساء: ((محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان)) ينظر: الفخر الرازي : التفسير الكبير ج10/ص63.

[2] - إدوارد ويستر مارك . موسوعة تاريخ الزواج ترجمة مصباح الصمد وآخرين.ص30

[3] - ينظر : شاكر مصطفى سليم : قاموس الأنثروبولوجيا ص601

[4] - يراجع : أحمد زغب : مبادئ الأنثروبولوجيا ص81 وما يليها.

[5] - شاكر : المرجع نفسه ص601

[6] - إدوارد ويستر مارك : المرجع السابق ص 31

يستدل ويستر مارك بسلوك بعض الحيوانات التي تعيش مجتمعة الذكر والأنثى والأطفال، ويرى أن الزواج يتولد من العائلة وليست العائلة هي التي تتولد من الزواج كما يتصور البعض، فهناك حالات لا يصبح فيها الزواج نهائيا إلا بعد الإنجاب أو عند ظهور دلائل الحمل ،حالات يكون فيها الحمل والولادة تمهيدا للزواج ([7]) .

صحيح أن بالزواج يتم الإشباع الجنسي للطرفين، لكن الجنس ليس الهدف الأساسي من الزواج، فقد ثبت أن بعض المجتمعات تبيح الاتصال الجنسي خارج الزواج، فالأولوية في الزواج تعطى دائما للعامل الاقتصادي ، والتي تتمثل في التعاون على المعيشة ([8]). لذلك فإن الزواج – كما يرى ويستر مارك – أكثر من رابطة جنسية ، فهو مؤسسة اجتماعية واقتصادية يمكنها أن تطاول بوسائل عديدة حقوق ملكية أفرقائها؛ فمن واجب الزوج ضمن حدود الإمكان والضرورة ، أن يؤمن معيشة زوجته وأولاده ، ولكن واجب هؤلاء يمكن أن يقضي بالعمل لديه في المقابل، وبموجب القاعدة فإنه له عليهم درجة معينة من السلطة رغم أن السلطة الأبوية محدودة المدة على العموم.([9]).

مراحل ما قبل الزواج:

تقضي عادات معظم الشعوب أن الفتاة التي وصلت سن البلوغ ، وكذلك الفتى ، فإن الأصلح أن يتزوج كل منهما مع من يختار.وتعتقد كثير من الشعوب البدائية أن عدم زواج الشاب أو الشابة ،وتجاوزه فترة عمرية دون زواج يصمه بوصمة سيئة أمام المجتمع ، فهو في الغالب أبله أو ذو عاهة عائقة ومن ثم ينظر إليه باحتقار ، ولا يؤذن له بالمشاركة في الأعياد والاحتفالات البهيجة، ويسمى الرجل الأعزب (اللارجل).

وفي مجتمعاتنا العربية ككثير من المجتمعات يفضل الزواج المبكر ، كما يفضل الزواج الإضوائي endogamie، ولما كانت التقاليد تمنع التقاء الفتيان والفتيات إلا في حالات نادرة، بسبب القيود الصارمة التي تتحكم في عادات الزواج، قد تكون الخطوبة مقررة من قبل الوالدين دون استشارة الشابين ، وهذا يحدث بكثرة في كثير من المجتمعات ، حيث يقدّر الكبار أن الشباب قليلو الخبرة ولا يحسنون الاختيار، لكن المجتمع قد يخلق فرصا للتعارف والاستلطاف بين الشابين ، مما يمهد للخطوبة ، فلدى البدو كثير ما يختلط الغنم في المراعي وينجم عنه الاختلاط بين الرعاة، فصغار الماعز تعهد إلى الصبيان والفتيات ، وتتاح للشبان اقتراب بعضهم من بعض ، كما تكون الحاجة إلى ورد البئر لسقاية الماشية فرصة لالتقاء الشبان بعضهم من بعض ،وتبادل كلمات الاستلطاف، وقد تتحول إلى رغبات جامحة، وتتشابه عادة أهل مطماطة في الجنوب التونسي ، مع ما سماه فوازان Flirt public (= مغازلة علنية)([10]) عند بدو أهل سوف ، وتحدث غالبا عند ورود الآبار، سواء لجلب الماء أو لسقاية الماشية ، وكما هو الحال في مدينة غدامس اللبيبة وهي عادة قديمة تسمى (ليلة

---

[7] - المرجع نفسه ص 29

[8] - محمد الخطيب الأثنولوجيا .دراسة عن المجتمعات البدائية منشورات علاء دمشق 2000 ص157

[9] - إدوارد ويستر مارك ، المرجع السابق ص 30

[10] - André Roger Voisin Monographie du Souf p143

ممرو) وهي كلها فرص مفتعلة من قبل المجتمع لاختلاط الشبان بالفتيات من أجل التعارف والخطوبة ([11]).

كما نجد الأفراح والأعراس فرصا للقاءات كرقصة النخ ورقصة البنقة في وادي ريغ ورقصة الهوبي في منطقة الساورة .ورقصة التكوكا في ورقلة ...الخ.

والفتاة تطلب لجمالها ونسبها ، غير أن كثيرا من الشعوب يضعون الجمال في المرتبة الأخيرة – على الأقل على المستوى القولي- وحجتهم في ذلك أن الجمال يزول بمرور الأيام والسنين ، أما الأخلاق والتربية الحسنة فهي الركيزة الأساسية في نجاح الزواج، فالمسلمون يرددون الحديث الشريف الذي يقول ''فاظفر بذات الدين تربت يداك''([12])، كما نجد في الأقوال المأثورة كثيرا ما يؤخر الجمال ويجعل الأفعال أولى الأولويات مثل : قول المجدوب:

لاَ يَعْجْبَكْ نُوَّارْ الدَّفْلَى فِي الْوَادْ داير ظِلاَيِلْ

وْلاَ يَعْجْبَكْ زِينْ الطَّفْلَة حَتَّى تْشُوفْ الفَعَايِلْ([13])

الخِطبة أو الخطوبة:

تعرف الخطبة (بكسر الخاء) والخطوبة بأنها طلب امرأة للزواج، وإذا علمنا أن القبائل البدوية ، تفضل الزواج الداخلي ، فالخطوبة تتم بين الكبار دون أخذ رأي الشابين ، فكثيرا ما يتم الاتفاق بين الكبار على أن يزوجوا الأطفال ، بعد البلوغ ، بمعنى أن الطفلة تخطب في سن الطفولة للطفل ، وكثيرا ما تولد الوليدة فتسمى لابن عمها الذي ولد قبلها بعامين أو بضعة أعوام أو أحد أقاربها وتبقى هذه الخطوبة ، ويقال في هذه الحالة أن فلانة مسمية(= مسماة) لفلان منذ الولادة ،وتظل هذه الخطوبة سارية المفعول إلى سن البلوغ وقد تطبق بالفعل ، فيحدث الزواج ، لكنها ليست ملزمة ، فقد يرى والد الشاب بعد البلوغ أن يتنازل عنها أو يختار غيرها.

وأما في سن البلوغ فإن الشبان يعربون عن رغبتهم في الفتاة المعينة بأية وسيلة من الوسائل التي سبقت الإشارة إليها، ففي رقصة النخ يعرب الشاب عن رغبته في الفتاة ، برش قارورة العطر على رأسها، فيفهم من ذلك أنه عبر عن رغبته في خطبتها، وفي قصر ورقلة القديم ، تضع الأم العلامة ، وهي منديل أحمر ،في خصر الفتاة التي تختارها لابنها ، وهي ترقص التاكوكا، ليراها الشاب وهو على السقف مع مجموعة الشبان ، و يوافق عليها، ويكون القرار الأخير في أيدي الوالد أو الجد إن كان على قيد الحياة.([14]).

---

[11] - أحمد زغب : جمالية الشعر الشفاهي ر دكتوراه جامعة الجزائر 2007 ص83.84.

[12] - نص الحديث : تنكح المرأة لأربع لمالها وحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)) رواه البخاري .ينظر صحيح البخاري ج6/ص123

[13] - رباعيات المجدوب بعنوان الشاعر عبد الرحمن المجدوب إعداد توفيق ومان الرابطة الوطنية للأدب الشعبي منشورات فيسيرا برج البحري 2007 . ص72

- [14] - ينظر: مصباح الهلي : المعتقدات الشعبية حول الزواج الحمل الولادة بمنطقة القصر العتيق بورقلة ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية عدد8 .2012 جامعة قاصدي مرباح .ورقلة.

في بعض الحواضر يجرى حفل لإلباس خاتم الخطوبة للإعلان عنها رسميا، بينما يتم الإعلان عنها – في مناطق أخرى- بإرسال أهل الفتى مجموعة من الهدايا، ففي بوادي سوف يقال إن الفلانيين خطبوا بنت فلان وليؤكدوا ذلك يقولون إنهم حملوا إليهم (القص) و(الهدية). أما (القص) فهو قطعتان من القماش تصلحان ثوبا للعروسة، أما (الهدية) فشيء من اللحم والخضار والفاكهة يصلح لوجبة دسمة، تجتمع النساء من الأقارب ؛ أم العريس، عمته ،خالته، وأخواته لأخذ القص والهدية إلى بيت أهل العروسة، يرسلن بعض الزغاريد كنوع من الإعلان أن أهل فلان خطبوا فلانة بنت فلان.

وفي كثير من المجتمعات مثل البوادي التونسية ومنطقة سوف تختفي الفتاة المخطوبة عن الأنظار كما يقول المرزوقي إظهارا للحشمة ، وتمسكا بالحياء العذري حتى لا يشاع عنها إنها مشتاقة لخطيبها ، أما نتيجة ذلك كما يضيف المرزوقي دفع الخطيبين إلى شوق مفروض يشتد أواره ويطول سعاره ، بطول المدة السابقة للبناء ، حتى إذا وقع البناء كان شوق الزوجين على أشده ، فيثمر الثمرة المطلوبة وهو الحب الذي تزيده العشرة في الغالب قوة ومتانة ([15])

التحضير للعرس:

يشرع قبل أيام من إعلان موعد العرس في تبييض جدران البيت ودهن الأبواب بلون جديد ينبئ بأن مناسبة سعيدة سوف تحل بهذا البيت ، وتشترى الشياه التي ستذبح للولائم طيلة أيام العرس، وتشرع النساء في تنقية وطحن القمح وفتل الكسكسي،وفي البادية تنصب الخيمة الكبيرة التي تتسع للمدعوّين ،وتحضر ''العطرية'' من السوق وهي كمية من العطور وملابس العروسة وهدايا لأهلها وذويها .

وبعد أن تتم كل التحضيرات ، يعلن فيه موعد العرس ، الذي يكون عادة يوم خميس ، غير أن أيام العرس تختلف من بيئة إلى أخرى، ففي ورقلة(القصر العتيق) مثلا يدوم العرس سبعة أيام كاملة([16])، أما في بوادي سوف والجنوب التونسي وكثير من المواطن يبدأ العرس من يوم الثلاثاء إلى غاية صباح الجمعة ، الذي يسمى (يوم الصباح).

اليوم الأول : ففي بوادي منطقة سوف والمناطق المجاورة، يكون عادة يوم الثلاثاء مساء ، وهو يوم الإعلان عن العرس والتمهيد له، يدعى مجموعة من الرجال الذين عرفوا بالقدرة على إنشاد الشعر ، وبعد صلاة العشاء ومأدبة العشاء، ينتحون ناحية ، والنساء ينتحين ناحية أخرى مقابلة ،ويترك بينهما حيّز من الساحة الواسعة، يتقدم أحد المنشدين ويأخذ في الإنشاد ثم يرد عليه آخر وهكذا يتواصل الغناء إلى الهزيع الأخير من الليل ، ويتخلل الحفل إنشاد مرفق بالضرب على الإيقاع يسمى (الرداسي)،ورقص الفتيات المؤهلات للزواج بإرسال الشعر يمينا ويسار وإلى الخلف وإلى الأمام على إيقاع الطبل المغلق الذي يسمى : الفرح.

---

[15] - المرزوقي .مرجع سابق .ص 79.

[16] - ينظر: مصباح الهلي المرجع السابق

وفي مثل هذا الحفل يقع اختيار الشاب على فتاته عروسة المستقبل ؛وذلك عن طريق رش قارورة العطر كما سبقت الإشارة، كما يتبارى الشعراء في إنشاد الشعر ويستعرضون قدراتهم أمام جمهور المتفرجين .